المـــرأة بيــن المــتنِ والهـــامش الشعر الأندلسـي أنموذجــاً

م.م. إلهام مفتن علي الجادري
كليــة التربيــة/ الجامعــة المستنصريــة
elham.aljadery82@gmail.com

الخـلاصــة

كلنا يعرف أن بلاد الأندلس بلاداً عرفت بالانفتاح الكبير ومنه الانفتاح النسوي، وباختلاف هذه الحضارة لاختلاف البيئة وطبيعة حال المجتمعات تلك آن ذاك ، حملت من العادات والطبائع ما غايرت بلاد المشرق بشكلٍ كبير، وهو ما دفعنا بأن نبحث في الأنساق الثقافية لهذا المجتمع، وبه سلطنا الضوء على شريحة مهمة فيه وهن النساء وحضور هذه الشريحة من الشاعرات كان لافتاً بشكل كِبير، من حيث تفاعلهن الأدبي والثقافي، فاعتمد البحث بعد القراءات الكثيرة للكتب التي ذكرت الشاعرات النساء في الأندلس والتي ذكرت إنجازات هؤلاء النسوة من ثقافة وخط وفنون بالإضافة إلى اجتياحهن عالم الأدب، ومنافستهن الشعراء وعلى الرغم مما اندثر من نتاجهن لكن ما وصلنا أثبت مكانتهن بقوة ، لكننا أردنا التقصي عن وجود المرأة المركزي والسلطوي بشكل عام في أدبهن وأدب الرجل من حيث ما تكشفه النصوص الشعرية ، وبحثنا في مباحث أُخرى عن وجودها كهامش في نصها ونص الرجل للتقصي عما واجهته هذه المرأة في هذه المجتمعات من إقصاء وتهميش، ففي كل الشعوب لم تخلوا المرأة من إنجازات كانت تحارب حتى تدلي بحضورها في وسط فحولة المجتمعات ، وهذا ما دفعنا للبحث في هذه القضية لما فيه من جدة في هذا المسار، وبالاستناد إلى كتب الغذامي أهمها (النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية) و(ثقافة الوهم) التي أثرَتْ مادة النقد الثقافي منهجياً للتقصي والبحث، بالإضافة إلى ما جاء به كُتَّاب الأندلس من ذكر للمرأة الأندلسية، كابن حزم وكان هذا لافتاً إذ هو تربى في حجورهن وحاول أن يحلل شخصياتهن من حيث وجهة نظره في تلك الحقب بمحدودية أو بتطرف، إلى جانب استنادي إلى كتاب ابن باشكوال الذي صنف كل النساء المشهورات في الأندلس وما جئن به من ثقافة أغنت البلاد بالخط القرآني وكتابة ونسخ للكتب والتمريض، وغيرها من الأعمال الكثير التي يصعب عدها، مع استنادنا إلى بعض المصادر الكبيرة كغصن الطيب للمقري بما جاء فيه من الأشعار المنفردة التي ذكرت الجواري وكيفية التعامل مع هذه الشريحة وما لاحها من مكانة أومن ظلم بحسب طبيعة ما يواجهنه النساء آن ذاك ، مثلها مثل الكثيرات في تلك الأزمنة، ونختم خلاصتنا بين ما وجدنا فيه المرأة مركزا في شعرها وشعر الرجل وقدرتها الجلية في إباحة الرأي وجموح اللسان، وما بين ما وجدنا فيها هامشاً لبت حاجات الذكورة والفحولة لا غير، وتغلغلت النصوص في الأنساق المجتمعية كباقي المجتمعات ليومنا هذا، ونقدم لكم بحثنا المتواضع عله يأتي للقارئ بإفادة وإضافة بسيطة.

حضور المرأة بين المتن والهامش في الشعر الأندلسي

Woen between solid and aring Andalusian boetry as aodel

M.Inspirtaion AlhaM Muftin Ali
Collge of Education Alusansiriya Univsit

Conclusion

We all know that the country of Andalusia is a country known as the great openness, including the feminist openness, and the difference in this civilization due to the different environment and nature of societies at that time. On an important segment in which they are women, and the presence of this segment of poets was remarkable Significantly, in terms of their literary and

cultural interaction, the research was adopted after the many readings of the books that mentioned the women poets in Andalusia and which mentioned the achievements of these women from culture, calligraphy and arts in addition to invading the world of literature, and competing with poets, despite the disappearance of their products, but what we have reached has proven their position strongly But we wanted to investigate the central and authoritarian presence of women in general in their literature and men's literature in terms of what poetic texts reveal, and we searched in other investigations about their existence In its text and the text of the man to explore the exclusion and marginalization that this woman faced in these societies. In all peoples, the women were not free from achievements that were fought until you showed their presence in the midst of the transformation of societies. To the books of Al-Thaghami, the most important of which are (cultural criticism, reading in cultural patterns) and (culture of illusion), which influenced the material of cultural criticism systematically for investigation and research. To analyze their personalities from their point of view in those epochs with limitations or extremism.

The presence of women between the text and the margin in Andalusian poetry

المرأة مركزاً في شعر المرأة:

كانت المرأة الأندلسية ذات مكانة منذ النشأة الأولى للدولة العربية آن ذاك، ومنذ البدايات الأولى لحكم دولة الخلافة الأموية، فقد بدأت اسهاماتها وظهورها في البلاد كامرأة ذات سطوة في قصور الإمارة، وقد ذكر التاريخ نساء أندلسيات ذوات مكانة في الأندلس آن ذاك. من هنا تأتي ويتوارد لأذهاننا أقوى الشخصيات الأندلسي مكان وجموحاً في هذه البلاد وهي: ولادة بنت المستكفي سليلة الخلفاء والأُمراء، لتمتثل وتتفجر في النص الأدبي الشعري الأندلسي كمركزاً للقوة والهيلمان الأُنثوي، وهي خير مثال شكلَّ أيقونة لتجليات مركزية النص النسوي.

فيعرف بها ابن باشكوال قائلاً:" ولادة بنت المستكفي بالله بن عبد الرحمن بن عبيد الدين الناصر عبد الرحمن بن محمد، أديبة وشاعرة جزلة القول، خشنة الشعر، كانت تماطل الشعراء وتساجل الأُدباء وتفوق البرعاء " (الصلة و ابن باشكوال، ١٩٨٩، صفحة ٦٣٢).

فولادة تذكر على أنها شاعرة سليلة للوجهاء وإنها في المرتبة الأُولى للنساء فهي امرأة تمكنت من فرض هيلمانها الشعري والوجودي القوي الآسر في حشود الرجال ومجالس الأُدباء، ليذكر شعرها بأنه شعر جريء خشن وجزل، فقد فاقت وابدعت وحلت حيث تشاء بقوة لا تمثل الصوت النسوي الضعيف، ويقول الدكتور الطاهر مكي: "وفي مجال الإبداع الأدبي بخاصة كان للمرأة حظ وفير منه، وهي ميزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية " (مكي، ١٩٨٧، صفحة ٨٧،٧٧) وفي المبحث هذا نبتدئ بها كأقوى مثالاً نسوياً تمركز في النص النسوي ككاتبة وأديبة، عبرت فيه عن قلمٍ متمكن يضاهي الرجال ويفوقهم أيضاً.

فيأتي النص السلطوي الشهير المتمثل بقصيدة ولادة التي تتوج نفسها فيها كامرأة تختار وتجمح وتسيطر على النص الذكوري بقولها:

أنــا والله أصلــحُ للمعالــي وأمشي مشيتي وأتيـهُ تيهـا

أُمكنُ عاشقي من صحن خدي وأُعطـي قبلتـي من يشتهيهـا (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٢٣)

ولادة شكلت استقامة لامرأة تغزو النص الشعري بالتعالي، وحصولها على منزلة المعالي محلاً طبيعياً لها، وأن جسدها مثلّ صخباً أُنثوياً متمرداً لا مستتراً كأي نص تصف فيه المرأة نفسها، ليغلب الحياء الأُنثوي على ذلك النص، فهي هنا مثلت خرقاً متمرداً للمرأة لتشكل بوجودها مرتكزاً للسطوة وهي تمنح ما تملك لمن تحب وباختيارها هي، وهي تتجلى في مسيرٍ طاغٍ هو الآخر يرسم سطوة المرأة القوية تارة والأُنثى الجميلة تارة أُخرى لكنها تظل في إطار السلطة والتمرد.

وتتمرد ولادة كعادتها أيضاً في مجالس الطرب واللهو، معبرة عن مشاعرها كأُنثى غير خائفة أو وجلة، بقولها:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرقِ سبيلٌ فيشكو كلَّ صب بما لقي

وقد كنتُ أوقاتَ التزاورِ في الشتا أبيتُ على جمرٍ من الشوقِ محرق ِ (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ١٦).

ولادة تمثل نوعاً من النساء الذي خالف العادة المعهودة، بأن المرأة بالطابع العام يجب أن لا يظهر لها صوت وحتى رأي وأن لا تجالس الرجال وغيرها من القيود التي حكمت المرأة الشرقية منذ عصور، حتى إننا سنرى كيف يثبت ابن بسام قدرتها ومكانتها بأنها نموذجاً يحتذى به ليشكل عنصراً أُنثوياً قوياً، قال ابن بسام "وأما ولادة التي ذرها ابن زيدون في شعره...كانت في نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر...." (الشنتريني، ١٩٩٧، صفحة ٤٢٩).

فالطبيعة الأندلسية ساعدت المرأة بأن تكون ذات سطوة ومكانة لا تماثل غريمتها المشرقية، إذ جعلنا في مبحثنا هذا نتناول شعر النساء وجموحه الكاسر للقواعد وللمركزية الذكورية، ومن ثم ننتقل لشعر الرجل وتجلي حضور المرأة السلطوي فيه حتى نتعرف على ذلك التمرد الأُنثوي الكبير بصوت المرأة الأندلسية المتمردة لا على لسان ولادة وحسب، بل هو شعراً تمكنت أصوات أندلسية كثيرة أن تتصدر القوة فيه، كما نرى ذلك في شعر حفصة الركونية، تلك الشاعرة المتمردة التي مثلت مركزاً نسائياً اقتحم النص الشعري بجرأته، ومن شعرها إذ تقول:

ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقولُ عن علمٍ وأنطقُ عن خبرِ

وانصفها لا أكذب الله أنني رشفتُ بها ريقاً أرقُ من الخمر (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ١٧).

عبرت حفصة عن ثنايا حبيبها وهي تسح الألفاظ سحاً مصورة تلك الأحاسيس الجياشة التي عاشتها والحبيب عندما تذكر بتلك الصورة الصريحة طعم ريق الحبيب، الذي شبهته بطعمٍ الذَّ من الخمرِ، لترسم بها صورة المرأة المنتشية مع الحبيب دون وجلٍ أو تردد، لأنها ببساطة امرأة اباحت لنفسها قيادة النص والمجتمع من حولها مثلها مثل الرجل.

ولها في أبيات أُخر تمردها الصريح إذ تقول:

وزائرُ قد أتى بجيد الغزال مُطلعٌ تحت جنحهِ الهِلال

بلحاظٍ من سحرِ بابلَ صيغت ورضابُ تفوقُ بنتُ الدوالي (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ١٧).

عادة ما يتصدر متن الخطاب الشعري في الحب والغزل الرجل، والقيادة الفحولية تكون له في مجال التمعن بصفات الحبيبة، وتحسسها شعرياً والتدقيق في وصف تفاصيلها، وهي مسألة دائماً ما يتولاها ويتزعمها في كل من النص الغزلي والإباحي معاً، وهذا سياق دارج بشكلٍ عام كنسق اجتماعي طبيعي في كل المجتمعات ، إلا أن كسر النسق والتوقع بأن تتصدر نص الغزل وقيادة ذلك النص المرأة، لتكون هي المتوجة لحالة الحب والشعور أزاء الحبيب فهو ما ندرويكاد أن ينمحي، لكنه بدا واضحاً عند الشاعرة الأندلسية حفصة الركونية، وذلك بأن تظهر مزايا الحبيب غير آبهة كونها هي الأُنثى، ولأن نصها هو ما مثلَّ المتن راحت لتثبت تلك الأحاسيس هي بحضورها الملفت بتغزلها بحبيبها، معبرة بأن كان له من الحسن الكثير وأنه تمثَّل زائراً لها يملك جيداً أشبه بجيد الغزال ، وله سحر لحاظ أشبه بأساطير بابل الساحرة ورضابه فاق رضاب بنات الدوالي، وهي كناية عن لون شفاهه المحمر اللذيذ بلذاذة طعم العنب، (فالدوال ضرب من العنب في الطائف يميل إلى الحمرة) (اللسان،مادة دوال) فحفصة كسرت النمط كما ذكرت سالفاً لتبات عاشقة ومعشوقة قوية واثقة، تتغزل وتبيح وتثير المتلقي قائلة في قصيدتها المشهورة:

أزورُكَ أم تزورُ فإنَّ قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميلُ

وقد أملت أن تضما وتضحى إذا وافى إليكَ بي المقيلُ

فثغري موردُ عذب زلالُ وفرعُ ذؤابتي ظلٌ ظليلٌ

فعجّل بالجوابِ فما جميلٌ إباؤكَ عن بثينةَ يا جميلَ (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٩٢).

يصنف الغذامي المرأة في النسق الشعري الجاهلي إنموذجاً، بالآتي الموؤودة، والمعشوقة والملكة والصنم المعبودة ، ويقول هذه أربعة نماذج كلية تقف معلقة في الفضاء اللغوي والتاريخي لثقافة العصر الجاهلي ، ويؤكد إنها لا تنتهي مع ذلك العصر بل تستمر وتتكرر في كل العصور والثقافات عربياً وعالمياً، وإن جاءت بصورٍ تتنوع وتختلف ظاهرياً وتتحدد جوهرياً ودلالياً (الغذامي، ١٩٩٨، صفحة ٣٨)، لكن المرأة الأندلسية اجتاحت ذلك النموذج فلم تمثل ذلك التهميش، لا في أنها حُدِدَت بأنها موءودة، ولا المعشوقة التي تمثلت بالجسد الضعيف وحسب ، ولا هي الملكة التي تتسلط وتعطي الأوامر والنواهي دون وجود المشاعر الإنسانية مثلها مثل غيرها ، ولا بأنها ذلك الصنم الجامد الذي يفتقد القدرة على التعبير عن مشاعره كما هو الحال في النص المركزي في مناداة حفصة للحبيب والتمثل بعرض أحاسيسها له عندما بعثت بقصبدتها هذه بمرسال غرامٍ تعبر فيه عن اشتياقها وحاجتها له كما هو يحتاج للتقرب منها ، فهي كانت على نسقٍ مركزي واحد هي وحبيبها ولم تجعل من الصفات التي فرضها النسق الاجتماعي على المرأة المشرقية أن تكون قادرة على السيطرة عليها.

وفي قول عائشة بنت أحمد القرطبية، عندما بعثت بشعرها لأحدِ خاطبيها من الشعراء إذ تقول:

أنا لبـوةٌ لكنني لا أرتضـي نفسي مناخاً طولَ دهري من أحد

ولو أنني اختار ذلـك لم أجب كلباً، وكم اغلقتُ سمعيَ عن أسد (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ١٠٨)

المرأة والقادمين لخطبتها في النص هنا يكشف عن أنساق تدلل على مرأة مهيمنة ولها الرأي ولها أن تتمرد على الخاطب إن لم يعجبها، فهي بذلك اختلفت في نشأتها الاجتماعية في ذلك المجتمع عن غيرها، ليجعل منها هي مصدر القوة والسلطة في الرضا أو الرفض فليس من هناك من يفرض عليها القبول رغماً عنها كسلطة ذكورية للأب أو الأخ على سبيل المثال، وتظل هي اللبوة ولن ترض لنفسها مناخاً أي هي الدلالة على الاستعباد في زواجها لرجل فلم ترضّ يوماً بأسد كيف بها لترضّ بالكلب، حتى إنها نعتت الرجل بنعوت حقرت منه في لبيت الثاني ليدل ذلك على مركزيتها وحدة رأيها في هذا العصر الذي استثنت نفسها فيه متمردة متمركزة بذاتها، بعيداً عن الإسلوب السليط في انتقاد الآخر، لكن ما يهمنا هنا هي تمثلت متمركز لامهمشة الرأي كامرأة ضعيفة ومنقادة في اختياراتها.

كما نلحظ في النص الأندلسي إن الأب يتباهى ببناته عندما يكبرن، فهو يأخذ بمدحهنَّ والتفاخر بمزياتهن، كالجمال والأخلاق وإنهن من البيت كذا ونشأنَ في المكان الفلاني، وهكذا يأخذ المديح للبنت من أبيها مأخذاً مغايراً لما يجئ به الشعر المشرقي من تلافي ذكر اسمها، ويذكر ذلك الباحثة إلهام الجادري:(ويذكر في المجتمع الأندلسي ظاهرة تمثل الأب والتفاخر بابنته في النصوص الشعرية، فقد تسامى الشاعر بنظرته لابنته بعيداً عن الأعراف المشرقية المتحفظة) (الجادري، ٢٠١٨، صفحة ١٤٦)أي إنَّ كيان المرأة ليس بمَعيبٌ به وأخذ مساحة للتفاخر والتباهي به من دون اختلاف مع الرجل الآخر ، وسأذكر هذه النصوص في شعر الرجل لاحقاً.

ويذكر لولادة ألمها في عتابها لابن زيدون من دون أن تأبه لردة فعل الرجل، فهي امرأة تبوح بمشاعرها أياً كانت فلا تخاف ولا تأبه بأن تتلفظ الألفاظ النابية وهي تذمه غاضبة:

أنَّ ابن زيدون على فضلهِ يغتابني ظلماً ولا ذنبَ لـي

يلحَظنَـي شزراً إذا جئتهُ كأنني جئتُ.....علـي (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٥٠).

وتقول في نصٍ آخر يسكنه حسراً امرأة تمردت على نسق الأُنثى الضعيفة فهي حتى في ألمها تسمو في عزائها مع الحبيب على حبٍ لم يكتمل، ليعتري النص مركزية الأُنثى المرتفعة، فهي مقدسة حتى في حبها وصعبة المنال في كل الأحوال تمثل السطوة، فالسماء بحد ذاتها تشكل التكوين المغلِف لكل الأرض فليس هناك من شيءٍ قادر على احتوائها.

هي الشمسُ مسكنها في السماءِ فعزِّ الفؤاد عزاءً جميـلا

ولن تستطيع إليها الصـعودا ولن تستطيع إليكَ النزولا (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٥٠)

المعتقدات بنت المرأة على فكرٍ تراكمت فيه قناعات تبنت افكاراً سطحية حوطت المرأة بأنها جسد صامت، ولسان أخرس لا يوجد لها حيلة، وهذا ما نصَّ عليه الغذامي (الغذامي، ١٩٩٨، صفحة ٣٨)، ونحن نرى أنَّ ولادة امرأة كسرت ذلك النص بسطوتها، وغيرت الفكر المهمش لها فأثبتت إنها امرأة قادرة لتعبر وتواجه الرجل حبيباً أم خاطباً وغير ذلك من منزلة ذكورية، وهذا ما اثبتته شواعر الأندلس الأُخريات من بعدها.

ولنزهون ما تقوله مفتخرة بحسنها وهي تجعل وجودها هو المتفشي على النص، بكل تفاصيل جسدها، لكن بشكلٍ مرموز لامباح، مثَّل تألق الجسد تحت ثيابها إذ تظهر مفاتنه في تباهٍ كبير:

البـدرُ يطلع من أُزرتــهِ والغصنُ يمرح في غلائلــهِ (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٢٥)

ولقسمونة وهي تفتخر بنفسها قائلة:

كالشمس منه البدرُ يقبس نورهُ أبداً" ويكسفُ بعد ذلك نورها (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٢٥)

ويُذكر لقمرٍ نصاً لم يكن للمرأة القوية في مجال الحب والرغبة وحسب، بل مثلت أنموذجاً لامرأة حاولت أن تستهجن الفروق السطحية في المجتمع، وتظهر قيمة المرأة المثقفة المتعلمة، وذلك عندما تعرضت لاستهزاء الجواري من حولها في حال حنينها إلى وطنها وتذكرها له، وهو العراق موطن صباها ونشأتها، فاستنكرت اساليبهن الهمجية وأجابت بشكلٍ متميز ميز سلطة ثقافية عالية لامرأة اجتهدت على نفسها لتعتلي عن قريناتها من النساء بقولها:

لو يعقلون لما عابــوا غريبتهـم للــهِ من أُمــةٍ تـزري بأحـرارِ

ما لابــن آدم فخـرٌ إلا بهمتــهِ بعدَ الديانـةِ والإخلاصِ للبــاري

دعني من الجهلِ لا أرضي بصاحبهِ لا يخلصُ الجهلِ من سبٍ ومن عـارِ

لو لمْ تكن جنــةٌ إلا لجاهلــةٍ رضيتُ من حُكمِ ربِ النـاسِ بالنـارِ

(المراكشي و ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ١٩٨٣، صفحة ١٢٩،١٢٨)

حتى أثبتت قمر في هذا النص حضوراً لوعيٍ دينيٍ ثقافي، وحاولت التذكير بأن الدين لا يمت للجهلة بصلة، فكان الخطاب خطاباً ثقافياً متعالياً بنبرة تكشف عن تمردٍ ثقافي واعٍ، لما يحيطه النص من سفه وتنمرٍ على الآخر، أياً كانت جنسيته، بل ارتقت بالنص موجهة رسالة واعية تفصح عن امرأة تميزت بخطاب يستهزئ بالنص الجاهل وقابلته بالتوقد الفكري في كل جوانبه، منها الجنبة الثقافية الطبقية والجنبة الدينية والعقائدية، لما ينصه الدين مستشهدة باقتباسها الديني المتواري داخل النص، الذي يوضح فكر الإسلام من حيث أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وما قدم في حياته، لا يحمل الخالق الإنسان على مكانه ونشأته ومن أين أتى .

يناقش الغذامي تساؤله ويطرحه بأن الاختلاف بين الرجل والمرأة يبنى شكلاً وجسداً، لكن هل هي تختلف عنه في عقلها وفكرها؟ ويجيب: تقول الثقافة: نعم.

ولكن بالمعنى السلبي، فالرجل عقل والمرأة جسد وهذا ما تعلن عنه كتابات الفحول لكل من سقراط وإفلاطون وودارون وشونبهور ونيتشة، والمعري والعقاد، واختلافها عن الرجل يجعلها "رجلاً ناقصاً" لأنها لا تملك أداة الذكورة (الغذامي، ١٩٩٨، صفحة ٥٧) وأخذت مكانة المرأة في المجتمع اليوناني تكاد أن لا تفرق عن مكانتها في المجتمع المشرقي، فهي التي تكون مسؤولة عن إنشاء السلالة السليمة وهي بما إنها امرأة متزوجة وجب عليها أن ترتدي الحجاب أو النقاب وألا تظهر لأي رجل، (إمام و إمام، ١٩٩٦، صفحة ١١)،إلا إننا عندما سلطنا الضوء على المرأة الأندلسية وجدنا إنها امرأة جريئة قوية، خاصمت الرجل ووقفت متحدية الأعراف وكسرت القيود كما ذكرنا ذلك على يد متن ولادة وسطوتها وحفصة وعائشة القرطبية، وكل شواعر الأندلس ونساءها اللاتي ذكرهنَّ التاريخ، إلى جانب نزهون التي فضحت جرأتها الجارحة للنص الذكوري وكانت بمحاذاة الخطاب المتسلط بسلطة لسانها المتمكن، وذلك عندما هجت الشاعر ابن قزمان، ونحن بالتأكيد لا نقف بجانب الهجاء للآخر أياً كان رجلاً أم امرأة

لكن نريد أن نسلط الضوء على قوة المرأة الأندلسية وأنها لاتهاب النص الثقافي الذي أوغل الذاكرة المجتمعية بتخويف المرأة وإخراسها والنص الحر له حيزاً متاحاً للرجل فقط، ونذكر لنزهون مداعبتها ومشاغبتها الشاعر ابن قزمان بعد أن رأته يرتدي لباساً لم يرقها: (أصبحت كبقرة إسرائيل ولكن لا تسرُّ الناظرين). (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ١٢).

وفي شعر أم العلاء نجد نصاً نسقياً دافع بقوة عن حق المرأة في رفض الرجل الأكبر منها سناً، فهنا مثلت مركزية النضوج والدفاع عن حق الاختيار في تزويج النساء، ورفض تحكم الأهل في اختيار الزوج لهن، كما تفرض تلك الزيجات في الكثير من المجتمعات المشرقية، وحتى الأُوربية على السواء، فهي قضية لازالت حتى يومنا هذا تطرح وبشراسة، ولازالت هذه الممارسات ق، فهنا تفرض هيمنتها على المرأة باعتبارها جسد غير عاقل لمسؤولية اختياره، كما ذكرت ذلك سلفاً في بيت لعائشة القرطبية ومثله تعبِّر أُم العلاء عن رفضها لمن خطبها وكان أشيباً يكبرها سناً بقولها:

يا صبحُ لا تبدُ إلى جُنحـي   فالليلُ لا يبـقَ مع الصبـحِ

الشيبُ لا يخـدع فمهُ الصِبـا   بحيلةٍ فاسمـع إلى نصحـي

فلا تكنْ أجهلُ من في الورى   يبيتُ في الجهلِ كما يُضحـي   (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٣٨).

تشبه الشاعرة نفسها بسواد الليل كناية عن شبابها إذ جعلت من الشيب صباحاً لا يلتقي مع ريعان شبابها، فالأمر أشبه بالمستحيل وأنه عبطاً ما يصنع وحيلة يتحايل فيها على نفسه ببساطة لأن فم الشيب الذي تقصد به الرجل المسن لا يتواءم مع عنفوان الشباب الأُنثوي اليافع، بقولها (بحيلة)، وهذا النص كما ذكرت إنما هو نص مكشوف يفضح انساقا اجتماعية تمرُّ في صميم العلاقات التي تهرأت حياة الكثير من النساء فيها، ومن دون أن يجدن آذاناً صاغية ليتجاوز المجتمع هذه المشكلة.

لكن المرأة الأندلسية نستطيع أن نقول هي امرأة أثبتت وجودها أمام ذاك النص الثقافي الفحولي، فكانت العاملة والمثقفة والخاطة للمصاحف الشريفة والكاتبة، ونلحظ أن الانقسام السياسي وتحول الأندلس إلى مراكز متعددة كان عاملاً مهماً في انتقال العلماء و بدوره انعكس على مكانة المرأة الثقافية و الأدبية. كما يشير ليفي بروفنسال أن المرأة الأندلسية قد على شأنها في الأندلس وقد تمتعت بحياة اجتماعية لائقة (محمد و الحميري، ١٩٦٦، صفحة ١٠٢).

نجد ثقافة الوعي والوجود الأُنثوي للمرأة الأندلسية في مجال العمل قد اتخذَّ خطاً واضحاً وجلياً في حياتها وهذا ما أثبتته نصوصهن ككاتبات وخاطات ماهرات آن ذاك، فنستشهد هنا بصفية بنت عبد الله الربي، التي كانت تتباها بحسن خطها وجماله عندما عابته امرأة فأجابتها قائلة:

وعائبةٌ خطِّي فقلتُ لها اقصري   فسوفّ أُريكِ الدُّرَّ في نظمِ أسطري

وناديتُ كفى كي تجودَ بخطِـها   وقرَّبتُ أقلامي ورقـي ومحـبري   (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٢٥)

ومن هذه النصوص نجد أن المرأة الأندلسية كان لها دوراً كبيراً في تسليط الضوء على الكثير من الأُمور الإنسانية و الاجتماعية الكبرى، التي تخصُّ المرأة ومكانتها وحقها في الرأي، فهي هنا مثلت عنصراً واعياً في كتاباتها له جلَّ الاحترام والتحية، وشكلَّ طفرة تاريخية أمام هامشية المرأة آن ذاك في كل المجتمعات من حولها.

المـــرأة مركــزاً في شعــر الرجـل الأندلســـي :

لا نستطيع أن نتجاوز في هذا المبحث شعر ابن زيدون كونه الشاعر الذي أسرته امرأة ذات سطوة ومكانة وشأناً كبيراً في الأندلس، ولأن التاريخ خلَّد ذلك الحب وتلك النصوص بما فيها انكشافات كبيرة عن قوتها وهيمنتها عليه، مع أنه كان وزيراً هو الآخر وذا مكانة كبيرة في بلاده، إلا أنه لا يملك الحيلة أمام عشقٍ أبدي لم يجلب له إلا الضعف وفقدان السيطرة أمام الجبروت الأُنثوي ، نستطيع أن نقول أن الحب والعشق على وجه التحديد هو ضعف بحد ذاته، لكن ولادة تشير بقوة كبيرة داخل النص

ويجدر بها أن تكون هي أيضاً ضعيفة كونها تبادل هذا الشاعر ذات المشاعر وهي تعيش ذات الدوامة والمعترك ، لكن ولادة تكشف عن نص متمرد لامرأة مثلت مركزاً تاريخياً في هذا النزاع ، ولنا في أشعار ابن زيدون الأمثلة الكثيرة:

متى أبثُكِ مابي، ياراحتي وعذابي؟

متى ينوبُ لساني، في شرحهِ عن كتابي

الله يعلمُ إني أصبحتُ فيكِ لما بي

فلا يطيبُ طعامي، ولايسوغُ شرابي

يافتنة المتقري، وحجة المتصابي

الشمسُ أنتِ توارت، عن ناظري بالحجابِ (زيدون، ١٩٩٤، صفحة ٣١).

نؤكد نصوص ابن زيدون سطوة ولادة كامرأة جردت قدرته وجمَّدت كيانه أمامها، حتى راح شعره يكشف عن اجتياح كبير لها كامرأة تمركزت في النص الذكوري وخلدها التاريخ وهذا ما دفعا أن نتقدم بهذه النصوص في مبحثنا هذا، ويقول في أُخرى وهو ينفث حسرات العشق:

أأُجفى بلا جرمٍ وأُقصى بلاذنبِ، سوى إنني محض الهوى، صادق الحب

أُغاديكِ في الشكوى ، فأُضحي على القلى، وأرجوكِ للعتبى، فأُظفرُ بالعَتَبِ

فديتكِ ما للماءِ، عذباً على الصدى، وإن سمتني خسفاً، محلكَ في قلبي

ولولاكِ ما ضاقت حشايَ، صبابةً، جعلتُ قراها الدمع، سكباً على سكبي (زيدون، ١٩٩٤، صفحة ٣١).

نص ابن زيدون نص متفجر بالحب والإذلال للحبيبة، مثَّل صورة للحبيب المتأسي منزوع القوى أمام حبيبته، فكلُّ ما في النص رجاء للنظر في أمره وأنه يعاتِب ويُعاتَب، ويُجفى ودموعه كرجل تسكب من ألم الحب وهذا ملا يقبله الخطاب الذكوري بهذه الصور المجحفة له في النسق الاجتماعي، إلا أن ابن زيدون يبيح ذلك العذاب غير مبالٍ، فجعلها هي القادرة المحتكمة وهو من ذُلَ في ذلك الحب وهُمِش.

وله في نص آخر يمثل قدرتها وإهانتها لوجوده عندما ذكر ضربها للجارية، وهو من يوم تلك الحادثة صارفراقهم:

ولادةٌ تشتهي ضربي

وما ضُربت عُتبى لذنبٍ أتت به ولكنما ولادة تشتهي ضربي

فقامت تجرُّ الذيل عاثرةً به وتمسح طلَّ الدمعِ بالعنمِ الرطبِ (زيدون، ١٩٩٤، صفحة ٥١).

تتجرأ ولادة بقدرتها وقوتها على ابن زيدون وبكل بساطة لأنها أميرة بالإضافة لأنها امرأة جامحة السطوة والقوة، فيتفشى نص ابن زيدون بالعتاب،

عتاباً جارحاً يمثل حاله وانكساره أمامها ، اذ ابتدأ عنوان القصيدة بأن (ولادة تشتهي ضربي) على تقدير أن ضرب ولادة كان هو المقصود به، فالمركزية تسحق العاشق وتجعل منها المتمكنة الساحقة لكيانه كرجل وكشاعر ووزير معروف في زمانه، كما أن النص نصاً مزدوجاً فبين مركزية ولادة هناك تهميشاً آخر تمثلَّ بجاريتها، فلا ننسَ أنه همش الجارية وجعل منها مهانة سائرة تجر أذيالها بسبب ضرب سيدتها ذات السلطة لها وليس لديها القدرة للدفاع عن نفسها وهذا مألوف حتى يومنا هذا.

ولنا في صفي الدين الحلي قوله:

ربَّ غيداءٍ للظباءِ تناظر

علقت شادناً، محياهُ ناضرُ

لستُ أنى مقالها وهو ناظرُ (النواجي، ٢٠٠٦، صفحة ٢٧٣).

وله في موشحة أُخرى:

فانثنيتِ لاهيـة والقلـوب واهيـة

تضحكين لاهيـة والمحـبُ ينتحـبُ

ولما رأيتُ السقم نحلَ مهجتي تعجبتِ من سقمي وأنكرتِ قتلتي

صرتِ إذا بدا ألمي عندما أرقتِ دمي

تعجبينَ من سَقمي صحتي هيَ العجبُ (النواجي، ٢٠٠٦، صفحة ٢٠٢،٢٠٤).

وتظهر هنا مركزية المرأة العاطفية في نص الرجل، وقدرتها وتهميشها له كحبيب، وهي تتثنى أمامه، بدلالات السقم والألم الذي جناه ممن أحبها، وهو يبالغ في وصف حال الحبيب السقيم ويجتاح النص بذلك الوصف، وأنه ليس من الطبيعي مشاهدتها له وهو معافى لأنه معذب بحبها بشكلٍ ضعيف يحتم عليه سطوتها كمعشوقة تيمته وطوقته في تلك الدائرة السقيمة، فهنا رسم صورة للحبيبة المهيمنة بجسدها المتثني وضحكاتها التي جعلت من الحبيب سقيما قتيلاً عند حضرتها بدلالة قوله: (تعجبتِ من سقمي وأنكرتِ قتلتي).

ويقول ابن سناء الملك بين سطوة المرأة وضعف الرجل نصه التالي:

أحمى الهوى مزاجهُ دعوه من حب الحكيمِ فإن الدوا عندي

كم في الجمالِ مثلي شقاؤُها دواهـا

وكم تُريـدُ قتلـي ولم أرد سواهـا

وقالَ لائمٌ لـي: لَجَجتَ في هواهـا

قلبي لها يتـوقُ وقلبهـا يقـولُ

هيهاتَ لاطريـقُ هيهاتَ لاوصـولُ (النواجي، ٢٠٠٦، صفحة ٢٦٣)

هنا تسطو مركزية المرأة عبر التغلغل الفكري الثقافي في ذهن الرجل، إذ يجعل منها المسيطرة على القدرة الرجولية والجسدية بشكلٍ عام(وهنا المسألة تتجاوز ذلك، لتتحول متعة القراءة وفانتازيا الحكي إلى قناعة ثقافية تترسخ في الذات لمفكرة ، وتتحد بموجبها صورة المرأة في ذهن الرجل) (الغذامي، ١٩٩٨، صفحة ١١).أي إننا نستطيع أن نترجم ما تكالبت عليه الأنساق الثقافية في ذهن المجتمع الذكوري بشكلٍ عام بأن المرأة هي المتسلطة المنفذة لقوانينها في معركة الحب، وأن الرجل بحسب هذا النسق هو الكائن المغلوب على أمره في تلك المعركة وهو الفاقد للعافية وللقدرة وللخلاص من تلك السطوة.

وعندما يقترب التسلط الأنثوي والهيمنة المركزية للمرأة في نص الشاعر بالاقتراب من الحب المازوخي، ممكن أن تكون حينها سلطة غير محببة، لكن النص أباح ذلك وللشاعر الحرية في التعبير عن قدرته أمام المرأة وعن اللاقدرة، وهنا هذه الأبيات ستستوقفنا في قول المعتمد بن عباد:

سأسألُ ربي أن يديمَ بيَ الشكوى فقد قربتُ من مضجعي الرشا الأحوى

إذا علةٌ كانت لقربـكَ علـةٌ تمنيتُ أن تبقى بجسمـي وأن تقوى (المعتمد، ١٩٥٧، صفحة ٥٧)

ويقول ابن خفاجة ما لا يبتعد عن نص الضعف الذي تسيطر عليه قدرة المرأة الحبيبة، بقوله:

أأدعو فلا تلوي، وأنت قريبُ وأشكو فلا تُشكي وأنتَ طبيبُ (خفاجة، ١٩٩٤، صفحة ١٩٤،٤٤)

ويقول الأسعد بن بليطة وهو فاقد للسيطرة على قدرته أمام قدرة المرأة:

ليتني ما رميتُ أسهمَ لحظي ففؤادي أصبتُ حينَ رَميت

أيها المُبعدي ونفسي لديه هاتَ نفسي فيا لها منكَ هيتْ (بليطة، ٢٠١٠، صفحة ٥٣)

ولابن زيدون كم من الضعف المروع في نصوصه الشعرية التي اشتهر بها في حبه أمام سطوة ولادة، بعد ان تركته وراحت لغريمه ابن عبدوس، ويقول متألماً:

أغائبةٌ عني، وحاضرةٌ معي! أُناديكِ، لما عيلَ صبري فاسمعي

أفي الحقِ أن أشقى بحبكِ، أو أرى حريقاً بأنفاسي، غريقاً بأدمُعي؟

ألا عطفةٌ تحيا بها نفسُ عاشقٍ جعلتِ الردى منهُ بمرمى ومسمعِ

صَليني بعضَ الوصلِ، حتى تبَيَّني حقيقةَ حالي ثمَّ ما شئتِ فاصنعي (زيدون، ١٩٩٤، صفحة ١٦١)

بين الحضور والغياب تجتاح ولادة مكانتها في حياة الشاعر، لتوجعه وتضنيه وتشقيه، حتى أنه يصف حالات الألم بين الحريق والغريق أي أنه يعيش بقدرتها عليه أفظع وأشد حالات الموت، حتى توسلاته للوصل جاءت من دون جدوى، حتى أنه يعرض عليها الوصال وبعدها ما شاءت صنعت به فهو مباح لها للألم والوجع فلا يتمنى غير وصالها ووجودها معه.

وله في نص آخر لا يبتعد عما سبقه بقوله متعطشاً لوصالها وهي المسيطرة عليه لأنها ببساطة تمثل الحياة فاستعارها الشاعر بدلاً من الماء لترويه:

يا مُعطِشي، من وصالٍ كنتُ واردهُ، هل منكِ لي غلةٌ إن صحتُ: واعطشي

كسوتِني من ثيابِ السقمِ أسبغها ظلماً، وصيرتِ من لَحفِ الضنى فُرُشي (زيدون، ١٩٩٤، صفحة ٢٠٩)

ويقول في أُخرى في حادثة ضربها للجارية:

وما ضُربت عتبى لذنبٍ أتت به ولكنما ولادة تشتهي ضربي

فقامت تجرُّ الذيلَ عاثرةً به وتمسح طلَّ الدعمِ بالعنمِ الرطبِ (زيدون، ١٩٩٤، صفحة ٥١)

هو ذاته الذي يرسم قصة ألمه مع ولادة، هو العاشق المتيم المتعطش لحبيبته تلك المرأة القوية التي قست ولم ترأف بحال ذلك الحبيب، وتبقى تشكل تلك الديمومة الأُنثوية المتسلطة القادرة في ذلك الحب.

ويقول ابن حداد في حبيبته:

يا غائباً خطراتُ القلبِ محضَرهُ الصبرُ بعدكَ شيء لستُ أقدِرُهُ

تركتُ قلبي وأشواقي تُفَطِرهُ ودمعُ عيني وأحداقي تُحدِرُهُ

لوكنتُ تُبصرُ في تدميرِ حالتنا إذن فلا شَفِقتَ مما كنتَ تبصرهُ

فالعينُ دونكَ لا تَحلى بلذتِها والدهرُ بعدكَ لا يصفو تكَدُرُهُ

أُخفي اشتياقي وما أطويهِ من أسفٍ على المريةِ والأنفاسُ تُظهِرُهُ (حداد، ١٩٩٠، صفحة ٢١٠)

نجد لابن حداد نصّ تأخذ فيه حبيبتهُ مكانتها المُثلى في قلبه وهي غائبة، وهو فاقد للسيطرة أمامها، فحد الصبر عنده نفد ، ويؤكد في البيت الثالث أن الحبيبة تبصر حالهم وما آل إليه حبهم من دمار وهو يتوسل لها أن تشفق، لأن البيت الرابع بشطريه ثبت أن الحياة لا تحلو من بعدها بدلالة قوله : (فالعين دونك لا تحلى بلذتها والدهر بعدك لا يصفو تكدُرهُ) أي أن حالة الحزن

والكدر ستظل معه ما عاش وهو بعيداً عنها يحمل الشوق المخفي معه ويتألم لقدرتها على الابتعاد وتركه صباً متأسياً فاقدة للذاذة الحياة من دونها ، وهو النص يتفشى فيه القدرة والمكانة الأُنثوية في حياة الشاعر وفي أبياته بشكلٍ لا يسيْ للمرأة كجسدٍ متيماً به الشاعر بل ككيان يفقد في الشاعر صبره وقدرته على الاستمرار دون وجود ذلك الكيان .

وكذلك ما يظهره المعتمد بن عباد من سيطرة للحبيبة والزوجة في حياته حتى في الحلم:

وهواكِ لولا أنَّ طيفُكِ زائرٌ في الغيبِ لي ماذقتُ طعمَ رقادي

وإن حاولنا ألّلا نبعد دور المرأة عن سياق النص الجسدي السطحي المعهود لها، نستطيع أن نقول هي من كانت زوجته المحببة التي يتمنى قربها في حياته وهو بعيد في الحرب، لتمثل له الرقاد الهانئ والمأمن في المنام.

ولنا ألّلا ننسى قصة المعتمد مع جاريته اعتماد الرميكية، التي جلب لها طين حديقتها بالمسك وهي قصة مشهورة فكان مولعاً بحبها ضعيفاً أمامها (التلمساني و المقري، ١٩٦٨، صفحة ٢٧٣،٢٧٢)، كما أن الكثير من الملوك لم يخجلوا في نصوصهم أن يعترفوا بالعبودية لجواريهم، ليست العبودية بالمعنى الحقيقي لكنه كملك لم يخجل من قدرتها على امتلاك قلبه وروحه، حتى جاءت رمزية عبوديته هنا، وهذا النص جاء على لسان سليمان المستعين فقاله عنه جرأة منه:

لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ذلَّ الهوى عزٌ ومُلكٌ ثانــي

ماضرَّ إني عبدهنَّ صبابةً وبنو الزمانِ وهنَّ من عبداني (الأبار، ١٩٨٥، صفحة ٩)

حضــور الــمرأة هامشــاً في شعــر المــرأة الأندلسيــة:

درست مكانة المرأة الأندلسية الشعرية في الثقافة، وما تمخض عنه شعرها ومنجزاتها، وكيف كانت امرأة ذات سطوة وجمال وقوة اختلفت عن المرأة المشرقية، وهذا ما ذكرته بزوايا بسيطة الكثير من الدراسات، وقد سلطنا على الضوء على هذه المسألة في المباحث المتقدمة من دراستنا هذه، إلا أن النصوص الشعرية للمرأة الأندلسية تذكر مساحة من التهميش لها كجسد للخدمة تارة وللهو تارة ، وللدعاية تارة أُخرى وهذا ما سنعرضه في نصوصها وكيف أنها كانت بهذه الصورة تكشفها أنساق المجتمع المضمرة، التي تصوب الضوء نحو هذه النصوص وتكشف عما تخبأه خلفها من تهميش وابتذالِ لمكانة المرأة، وما نجده لإحدى الجواري وهي تشكو حالها إذ كانت آن ذاك تحمل صفة جارية الخدمة واللذة، لكون الجواري مقسمات حينها بحسب أعمالهن وبحسب ميول هوى مالكهن، فمنهن للذة ومنهن للعمل وإلخ.... وهذا ما لا يحتمله النص الحداثي لكننا لا نستطيع أن نغير فكر المجتمع آن ذاك وأن الإنسان أخذ على هذا الشأن وترعرع في قناعاته، إلا أن تعظيم هذه النصوص هو شأننا اليوم وتوجيه الفكر الواعي نحو قضية ثقافية مهمة ركز عليها الغذامي وآخرون أظهروا أن قيمة النص ترتقي عندما ترتقي فيه قيمة الإنسان ككيان من جسد ومن روح، له قدسيته ومكانته، فهو ليس بدعاية أو بمعرضِ جسدي ساحة عرضه البيت الشعري، ونأتي إلى قول الجارية الشاكية من سيدها أو مالكها كسلعة إنسانية :

وكنتُ أرجو معه للراحة وإذ لم يفز بطائلِ الملاحة

إذا به أدخلني في شغل لفرطِ الإلمامِ بسوقِ الغزل (الشنتريني أ.، ١٩٩٧، صفحة ٥٥٥،٥٥٢)

"فتعكس المصادر الأندلسية النظرة المتناقضة ككل الحياة بتناقضاتها للجواري وتهميشهن، فهن تارة بضاعة وتارة بشراً، فهن تحت زاوية معتمة، حتى نجد أن جواري الخدمة لا يظهرن إلا ظهوراً عابراً، وهذا ما ذكره ابن بسام لها، فهي موجودة لكنها بصورة شفيفة مثقلة ليس لها إلا الشكاية" (علي، ٢٠١٨، صفحة ٢١١)

ونذكر نصاً لإحدى جواري ولادة، التي يذكر فيه النزاع الذي حصل بينهما من أجل ابن زيدون وحبها لابن عبدوس مكراً به، فجاء النص يفرض تهميشاً لكيان الأميرة ولادة تلك التي أخذت من السلطة مأخذاً كبيراً، لكن النص لم يحتكم على سطوتها بل

جعل المركز هنا للجارية والتهميش للأميرة، في حرية شعرية خلقت جواً لتبادل الأدوار الطبقية بقول الجارية شاتمة ومتمادية لفظياً ولادة الأميرة:

ولادةٌ قد صرتي ولادة من غيرِ بعلٍ فضحُ الكاتمِ
حكت لنا مريمُ لكنـه نخلةٌ هذي ذكـرُ قائـمِ (الشنتريني أ.، ١٩٩٧، صفحة ٣٧٦)

على الرغم من أن بعض شعر ولادة يملأه الوجع في الفراق لابن زيدون، لكنها كانت مهمشة نفسياً أمام جموح اشتياقها وندمها على فراق من تحب، إذ تقول مولعة متحرقة في تذكر أيامها معه:

ألا هل لنا من بعـدِ هذا التفرقِ سبيلٌ فيشكو كلَّ صبٍّ بما لقـى
وقد كنتُ أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمرٍ من الشوقِ مُحرِقا (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ١٦).

وفي نص شعري و صريح للشاعرة حفصة الركونية وهي تهجو امرأة سوداء اللون، تمادياً وتنمراً على لونها، وهو بحد ذاته يرسم الطبقية المجتمعية للجسد البشري لا للمرأة وحسب، ونحن نعلم أن هذا التهميش طال أصحاب البشرة السوداء لقرون عدة أيضاً، وحملهم عبأ هذه البشرة التي ميزتهم بالقوة والجلادة، ألا أنها نقمت عليهم بأن استعبدوا ولم يحضوا بالمساواة طيلة حياتهم بذوي البشرة البيضاء، لكن ما وصل لحفصة بأن حبيبها أبو جعفر الذي ولعت بحبه وهامت به قد أحب الجارية سوداء اللون فجعلها كأي امرأة تحرقها غيرتها حينها تسحق كل الأسس الإنسانية، فهو بذلك يكشف وضوحاً بليغاً للتهميش النسوي للنساء فيما بينهن إذ تقول :

يا أظرفَ الناس قبل حالِ أوقعـهُ نحـوهُ القـدر
عشقتَ سوداءَ مثلَ ليـلٍ بدائعَ الحسنِ قـد ستـر
لا يظهرُ البشرُ في دُجاها كلا ولا يبصـرُ الخفـر
باللهِ قل لـي وأنت أدرى بكلِ من هامَ في الصور
من ذا الذي هامَ في جنانٍ لا نوار فيها ولا زهر؟ (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٩٠).

فهنا يتجلى السحق الجسدي للآخر، بكل صوره في اسلوبٍ استفزازي يستهتر بالإنسان، حتى أنها تلغي كل صفات الجمال في الجارية، موزعة ذلك في كل الأبيات الشعرية، إلى أن تختتمها بحمقه، عندما تسأله كيف به أن يهيم بالجنان الخالية من النوار والزهور مستفيضة بالتعبير البليغ بقولها:(من ذا الذي؟)، وجازمة بحتمية تيقنها لما تقول وتصف.

وفي نصٍ للإنسانة الخائفة كأي امرأة تفتقد للأمان، كونها اعتادت أن تتكئ على الرجل بطبيعة حال المرأة، حتى عصرنا هذا لأنها ببساطة تأخذ مهمة الاعتناء بالأبناء وعند وفاة الرجل تبدأ حالة الضياع والعوز والتهميش، وهذا ما مرت به الشاعرة قسمونة وهي تشكو مر عيشها وهمها للخليفة قائلة:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحط تُصلى بنارِ الهواجـرِ
ليعبر صدعي إنهُ خـيرُ جابـر ويمنعني من ذي الظلامـةِ جـابرِ
فإنـي وأيتامـي بقبضـةِ كفـةٍ كذي ريشٍ أضحى في مخالبِ كاسرِ
سقاهُ الحيا لوكان حياً لمـا اعتدى على زمـانٍ باطـشٍ بطشَ قـادرِ
أيمحو الذي خطتهُ يمـناهُ جـابرِ لقد سام بالأملاكِ احـدى الكبـائرِ (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ٨٣).

حضور المرأة هامشاً في شعر الرجل الأندلسي:

حمل الشعر الأندلسي في طياته صفاتاً للمرأة الملكة الحبيبة والزوجة والجارية والمعشوقة والعاشقة كما هو الحال في كل نصوص الشعر التي قيلت في كل الأزمنة وعلى كل ألسنة الأُدباء والشعراء، واليوم يأتي هذا المبحث ليسلط الدور على رؤيتنا نحو حضورها هامشاً في نص الرجل، كما حضرت في نص المرأة الأندلسية شعراً، ونجد ذلك جلياً في أبيات ابن زيدون، فكما كان لها

حضوراً مهيمناً وسلطوياً في شعره وذكرنا ذلك في المبحث الأول،إلا إن شعر هذا الشاعر لم يخلو من تنكيلٍ للحبيبة وتهميشاً لها أيضاً في جوانب أُخرى في العديد من الأبيات الشعرية التي ذكرت حربه المتناقضة مع ولادة، إذ يقول:

أكرم بولادةٍ ذخـراً لمدخـرٍ لو فرقت بين بيطارٍ وعطَّـارِ
قالوا: أبو عامرٍ أضحى يلُمُ بها قلتُ الفراشةَ قد تدنو من النـارِ
غيرتمونا بل قد صـار يُخلِفنـا فيمن نُحبُ وما في ذاكَ من عـارِ
أكلٌ شهيٌ أصبنا من أطايبـهِ بعضاً وبعضاً صفحنا عنهُ للفار (زيدون، ١٩٩٤، صفحة ١٣٦)

من أقسى ما يمكن أت يمرُّ على المرأة أن يستهان بها ككيان إنساني له وجوده وتوجهاته ، إذ جرَّ ابن زيدون ولادة من مكانتها كامرأة وجعل منها فضلات له تركها لغريمه ابن عبدوس، ليس هذا وحسب بل أن النسق الثقافي أخذ مجراه بشكلٍ مؤسف ، يوغل في حقيقة تفكير الرجل الذكوري ، وما حملته الثقافة في مخيلته من ترسيخ لفكرة ان المرأة كائن ضعيف وإذا حاول تغيير مساره فهو أشبه بالفراشة التي لا تعرف الصواب من الخطأ فهي تدنو من النار دون أن تدرك خطرها، وبذلك هو يهمش الكيان الأُنثوي في قراراته بشكل أساسي وعام لأنه ببساطة الرجل الفحل الذي إن قرر ليس كما المرأة فهي إن استبدلت أو قررت فمن البديهيات الاجتماعية هي ليست على حق، وإنها لا تعرف حسن اختيارها، وهي بالتالي غير قادرة على توجيه القرارات التي تعنى بحياتها الخاصة ،كما أنه يوغل التمادي منذ أول مطلع البيت بأنها لا تفرق كما ذكرت بين الخطأ والصواب بدلالة قوله:(بين بيطارٍ وعطار) وهذه جملة بحد ذاتها هي الجملة الثقافية كمثل سائر تتغلغل في الذبذبات الثقافية بحسب الغذامي (الغذامي،٢٠١٢، ٧٣)،وجعل في تهميشها المتفشي داخل النسق الثقافي الشعري بحد ذاته إنها فضلات تُركت لغريمه عندما شبهها بالأكل الشهي، بل لم يشبهها بل هو استعار لها الأكل الشهي ليزيد من حدة الوقع البلاغي في النص الشعري، وبهذا فهي ليست إلا جسداً شبع منه الشاعر وترك ما تبقى منه للفأر.

وهناك من الشعر الذي يهمش المرأة ككيان إنساني عندما تتعدد في مساحة مباحة لحب الرجل كأنها بضاعة ليس لها إلا أن يحبها مع غريماتها الجواري، ويجب عليها أن تفرح وتتقبل فهذا الخليفة أو مالكها وما عليها إلا الطاعة فهي ليست إلا سلعة تباع وتشترى، وتستعمل كجسد للغواية لإمتاع الرجل تارة هي وتارة الأُخريات من النساء والجواري، ولنا هذا النص الذي نسب إلى الرشيد:

ملك الثلاث الانسات عناني وحللنَ بقلبي من كلِّ مكانِ
مالي تطاعني البريـة كلها وأطيعهنَّ وهنَّ في عصيانِ
ما ذاك إلا سلطـان الهوى وبه غلبنَ أعزَّ من سلطاني

النص فيه نسق مخاتل للغلبة الأُنثوية الجنسية، لأنها جارية وأُخريات وما تقدم مما ذكرت أنه النص يحمل المرأة على إنها أشبه بالسلعة وإن تمنعت فهي ليست إلا جارية لسيدها. (الجراح، ١٩٨٦، صفحة ١٧)

وله في أخرى في جارية غضب منها وحلف ألا يدخل عليها، ويذكر أن ما حصل من الأعاجيب، وهذا بحد ذاته نص تهميشي صريح للمرأة:

صدَّ عنـي إذ رآني فَفُتِـن وأطال الصدَّ لما أن فُطـن
كان مملوكي فأضحى مالكي إن هذا من أعاجيب الزمن (الأزدي، ١٩٧٠، صفحة ١٧٣)

وهنا النص يمثل الصورة النمطية التي أشار لها الغذامي(الغذامي ،٢٠١٢، ١٢٦) ، وهي تجعل من الفحل المحتكر لكل شيء مرفوضاً، حتى عملية الرفض لأي أُنثى له ولرجولته عدها الشاعر من الأعاجيب، وبما أنه سلطان هنا تتعظم الحادثة وتتجلى المصيبة في الفكر الشعري لدى المتلقي .

وأما النصوص التي تصف تفاصيل جسد المرأة كأنه نص أراد الدعاية والغواية على حساب جسدها، وهذا ما جعل منها سلعة استهلاكية دعائية تثير المتلقي، فيشتهر بذلك النص لأنه يدغدغ مشاعر وذكورة الرجل الآخر وتلبي حاجاته، فهي أشبه بالأفلام الإباحية التي تبيح أجساد النساء للدعاية واللهو وهذا ما يسلط عليه الضوء الغذامي من حيث إنها تندرج تحت النسق الثقافي المضمر(والنسق من حيث هو دلالة مضمرة والدلالة المضمرة ليست مصنوعة من مؤلف ،ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء، يتساوى بها الصغير مع الكبير والنساء مع الرجال ، والمهمش مع المسوَد)(الغذامي،٢٠١٢ ،٧٩) وما يؤكد ذلك أغلب نصوص الشعر التي تستهوينا وتجذبنا كمتلقين ومثلها ما نذكره في شعر أبي خفاجة إذ يقول:

فعانقته قد سلَّ من وشي بُردهِ فعانقت منه السيف سلَّ من الغُمدِ
تُسافر كلتا راحتي بجسمـهِ فطوراً إلى خُصرٍ وطوراً إلى ندِ
فتهبطُ من كشحيهِ كفَّ تهامةٍ وتصعدُ من نهديهِ أُخرى إلى نجدِ
وغيرت بالتخميشِ كافور خدهِ وإني لعفَّ مئزري طاهرٌ بُردي (خفاجة، ١٩٩٤، صفحة ٢٤٩)

وله في أُخرى:

وصدرٍ نادٍ نظمـنا، به القوافـي عقـدا
في منزلٍ قد سـحبنا، بظلــهِ العزَّ بُـردا
قد ظنت المجدَ بيتـاً، فيــهِ وعرَّس وفـدا
تذكو بهِ الشُهبَ جمراً، ويعبـقُ الليـلُ نـداً
وقد تـأرجَ نـورا، غضّ يُخالــطُ وردا
كما تبسّــم ثغــرٌ، عذبٌ يُقبـلُ خــدَّا (خفاجة، ١٩٩٤، صفحة ٧٨)

وهذه الأبيات لم تختلف في شيء مما أوردنا ذكره سابقاً، من حيث إنها أباحت جسد المرأة، وهذا الفكر الثقافي ساهم في تهميشها لعقود حتى يومنا هذا.

النتـــــائج

فاتضح مما تقدم إن جسد المرأة بمثابة الدعاية لقوافي الشاعر، فكانت عقداً عليه، فهو لوحة تجسد قبلاته وملذاته التي يسقطها على ذلك الجسد دون أن يذكر أياً من تفاصيل جسده، وهذا بالتأكيد يدغدغ ويدخل كيانه في باب العيب وغير المستباح بحقه، لكن جسد المرأة يتجرد كصور إباحية مثيرة تثير المتلقي وتنعش جوارح الشعراء ، وتغذي مجازاتهم ، لا ضير ولا اعتراض في ذلك بالتأكيد فهو بمثابة الدعاية كما ذكرت مسبقاً، وسلعة استهلاكية للجذب، وهذه النصوص التي تربت عليها الثقافة في المجتمعات العربية من دون أن تثمن قدسية المرأة ككيان يجب اللا يستباح جسدياً، فالأجساد لم تكن يوماً لتكون لوحات للدعايات والنشر، ولإرضاء ذكورة الرجل وإضفاء المتعة لإظهار أمجاده الفحولية وبطولاته الجنسية، ونذكر أن أول من تناول هذه النصوص رغماً عن القبيلة كان امرؤ القيس في معلقته الشهيرة ، حتى جاء من بعده الشعراء ليصبح ذلك النص المهمش للجسد الأُنثوي من أكثر النصوص مداولة في الشعر العربي، وحتى في كل الشعوب إطلاقاً لافي الأندلس وحسب، فالمرأة كائن اغتالت عليه النصوص الشعرية والسردية دون شروط وتغلغلت في المجتمع العربي لتمكن الرجل وتوغل في سطوته، وما ذكره الغذامي في حكاية امرؤ القيس مع جاريته عندما أتمت له البيت كيفية سرد طرفة للحكاية وخفف الجارية من إتمام البيت لسيدها ارتباً منه حتى لحقها الذئب هي والجواري لتقول له متممةً لمكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً وهي تركض من الذئب لتجيبه بالشطر الثاني بقولها: جاء الذئب كجلمودِ صخرٍ حطه السيلُ من علِ ، حتى تذكر الثقافة بأن طرفة عندما ذكر حادثة المعلقة قُتل من سيده عقوبة لما ذكر،(الغذامي ،

٢٠١٢، ١١١ ،١١٢) وهنا الغذامي يشير ويوضح مدى تهميش الثقافية في داخل أنساقها المضمرة للكيان النسوي أياً كان دوره وإن كان ذا غلبة ثقافية على الرجل الفحل ، إلا أن البحث جعلنا أن نسلط الضوء نحو المرأة الأندلسية لنها لم تجعل بقوتها من نص البلاغة الذي تغلغل في الأنساق الثقافية المشرقية أن يأخذ ذات المنحى ، إذ جعلت لها مركزاً يحتذى به، ومكانة في نص الرجل ذاته ، واجتاحت الأدب والسلطة الأدبية والثقافية على الرغم مما وصلنا من شعرها القليل ، وهل يدخل ذلك في باب التهميش من نساء قلن الشعر وتحدين الرجل في تلك الأزمنة وكان لهنَّ قرائح لا يمكن أن يستهان بها ، لانعلم ولا نستطيع أن نجزن لكن ما وجدته أن المرأة الأندلسية عبر تلك السطور الأدبية التي قيلت عن لسانها وعن لسان الرجل كان لها حضوراً فاعلاً في حياة الأندلس تجلت بالسطوة الكبيرة التي ميزتها عن المرأة في المشرق، وإن وجد التهميش في تلك العصور لكن يدفعنا من الشعر الكثير بأن نستل تلك النصوص التي تألقت بها وأظهرت المرأة المركز والكيان القوي الذي تمثلت به في تلك الحقب، وتمتعت به على الرغم من صعوبات المجتمعات وأنساقها الدوغمائية، حتى نجدها قد غلبت المرأة المشرقية وفاقتها إلى يومنا هذا.

تـــــــم

المصادر والمراجع

ابن القضاعي، ابي عبد الله محمد الأبار. (١٩٨٥). الحلة السيراء. القاهرة: دار المعارف.

ابن حداد. (١٩٩٠). ديوان ابن حداد. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن خفاجة. (١٩٩٤). ديوان. بيروت،لبنان: دار القلم للطباعة والنشر.

ابن زيدون. (١٩٩٤). ديوان. لبنان،بيروت: دار الكتاب العربي.

أبو الحسن بن بسام الشنتريني. (١٩٩٧). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. بيروت: دار الثقافة.

أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني. (١٩٩٧). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. بيروت: دار الثقافة.

أحمد طاهر مكي. (١٩٨٧). دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. القاهرة: دار المعراف.

التلمساني، و أحمد بن محمد المقري. (١٩٦٨). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. بيروت: دار صادر.

الصلة، و ابن باشكوال. (١٩٨٩). لبنان،بيروت: دار الكتاب العربي.

اللسان،مادة دوال. (بلا تاريخ).

المراكشي، و أبو عبد الله ابن عذاري. (١٩٨٣). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. بيروت،لبنان: دار الثقافة.

المراكشي، و محمد بن أحمد العذاري. (١٩٨٣). البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب. لبنان ،بيروت: دار الثقافة.

المعتمد. (١٩٥٧). ديوان. الدار التونسية للنشر.

النواجي. (٢٠٠٦). عقود اللآلِ في الموشحات والأزجال. جامعة الخليل: رسالة ماجستير.

إلهام مفتن الجادري. (٢٠١٨). تمثلات الجسد في الشعر الأندلسي ،دراسة تحليلية. رسالة ماجستير: الجامعة المستنصرية.

إمام، و عبد الفتاح إمام. (١٩٩٦). *إفلاطون والمرأة ،سلسلة الفيسلسوف والمرأة*. مكتبة طريق.

بن بليطة. (٢٠١٠). *ديوان الأسعد بن بليطة*. الأنبار: العدد ٣.

حمد بن داود الجراح. (١٩٨٦). *الورقة*. مصر: دار المعارف.

دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، و طاهر أحمد مكي. (١٩٨٧). القاهرة: دار المعارف.

عبد الله الغذامي. (١٩٩٨). *ثقافة الوهم مقاربات حول المرأة والجسد واللغة*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

علي بن ظافر الأزدي. (١٩٧٠). *بدائع البداءة*. مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

فريال عبد الرحمن علي. (٢٠١٨). *الجواري في الأندلس ،جدل الابداع والعبودية* . جامعة أم القرى: بحث.

محمد، و محمد بن عبد الله ين محمد الحميري. (١٩٦٦). جذوة *المقتبس في ذكر ولاة الأندلس*. القاهرة: سجل العرب.

واقدة يوسف كريم. (٢٠٠٣). *شعر المرأة الأندلسية من الفتح حتى نهاية عهد الموحدين ٢٩-٦٣٥هـ*. رسالة ماجستير ،جامعة تكريت.